

## محمود العالم فى عامه الخامس والسبعين

أديب ديمترى (\*)

تحية عاطرة إلى رفيق الكفاح والسلاح الصديق العزيز محمود العالم، المفكر المناضل والمنور الكبير، فى عيد ميلاده الخامس والسبعين.

وتحية من قبل ومن بعد إلى من يحتفلون فى هذه المناسبة، بمن تخرج فى الجامعة العتيده، جامعة القاهرة أم الجامعات المصرية، وفى كلية آدابها وقسم الفلسفة بها بوجه خاص . . بأولئك الذين تميزوا بإسهاماتهم البارزة فى إثراء ثقافتنا العربية، وإنماء وعى أمتنا وشعبونا، وأناروا أمامها الطريق بفكرهم العقلانى المستنير طبعوا ويطبعون بصماتهم على فكرها ومسيرتها نحو آفاق المستقبل، وبخاصة من لا يزال منهم يحمل مشعل الاستنارة والتقدم، ويقبض فى إصرار على سلاح العقل وفلسفته، ويت رسم خطى أسلافه رواد الفكر والفلسفة والاستنارة، أساتذة الجيل الخالدون؛ لطفى السيد وطه حسين ومنصور فهمى والشيخ مصطفى عبد الرازق وأساتذة جيلنا الأجلاء إبراهيم بيومى مذكور ويوسف كرم ومحمود الخضيرى ويوسف مراد وتوفيق الطويل وعبدالرحمن بدوى ورثة أعلام النهضة منذ العطار والطهطاوى والأفغانى وعبد والكواكبى وابن باديس . . الخ هذه الكوكبة من الرواد العظام.

وفى هذه المناسبات الاحتفالية، لاتفى كلمات المجاملة أو المديح، بخاصة لمن ظل طوال

---

(\*) أديب ديمترى: مفكر وناقد وكاتب مصرى مقيم بباريس.

حياته، ولا يزال، عابداً في محراب وطنه الصغير والكبير، مفكراً مناظلاً ثورياً، ومنوراً كبيراً، بعطائه المتواصل في شتى ميادين الثقافة والفكر والفلسفة والأدب والنقد والإبداع، في حمة لا تنفصل عراها عن حقول السياسة والممارسة العملية، بل يتعين في مثل هذه المناسبات تقديم الدراسات العلمية الجادة والشاملة الناقدة لأعماله ونضالاته في الظروف التاريخية التي عاشها وعاشها.. فعل فيها وانفعل واسهم بما قدم في دفع حركتها إلى الأمام. يكفي مراجعة قائمة كتبه ودراساته وكتاباتاته التي تعدت العشرين أو أكثر، وهي تطوف بنا بين شتى ميادين الثقافة والفكر والفلسفة والسياسة، كما تقدم خريطة فكرية شاملة للوطن العربي طويلاً وعرضاً في عصرنا الراهن وتراثنا الماضي، ما بين مختلف الأفكار، ومدارسه الفكرية، من أقصى المغرب العربي إلى أقصى المشرق.. من الجابري والعروري في المغرب إلى صادق جلال العظم وأدونيس ومهدى عامل وحسين مروة وطيب تزيني وياسين الحافظ في المشرق مروراً بمصر بالطبع، حيث لم يترك شاردة ولا واردة من زكي نجيب محمود إلى حسن حنفي ونصر حامد أبو زيد من الإسلاميين المستنيرين إلى عبدالرحمن بدوي صعوداً إلى جيل المنورين منذ جمال الأفغانى ومحمد عبده والكواكبي وابن باديس، نزولاً إلى شبلى شميل وطه حسين وعلى عبدالرازق ومنصور فهمي وسلامة موسى، ويجذر رحلته في الماضي إلى أعماق التراث الحضارى والفكر الفلسفى العربى والإسلامى ومدارسه المختلفة من المعتزلة إلى الأشاعرة مروراً بالباقلانى وابن قيم الجوزية وغيرهم ويقف طويلاً عند ابن رشد بعقلانيته التى أشاعت النور فى ظلمات العصور الوسطى الأوروبية، فضلاً عن ابن خلدون وبقية أعلام التراث، وهو يكشف برصده التاريخى هذا، عن معرفة موسوعية شاملة بالتراث وامتلاك لفاتيحه الفكرية والفلسفية والمعرفية، كما يكشف عن أصالة اكتسبها منذ طفولته التى عاشها فى مناخات الأزهر الشريف من خلال أسرته ومنذ نشأته الأولى فى حى شعبي إسلامي.

وقد انعكس ذلك فى ارتباطه العاطفى والفكرى بالأحياء الشعبية فى قاهرة المعز، وعقب أريجها الذى لم يغادر لحظة جماع تكوينه العقلى والنفسى والخلقى وقد أخلص لها وحمل همومها مع هموم وطنه ولا يزال.

ويضاف بلاشك إلى إسهاماته الفكرية والنضالية السابقة واللاحقة، بل وفى مقدمتها موسوعته الدورية «قضايا فكرية» بأعدادها المتلاحقة حتى يومنا، والتى عاجلت وتعالج شتى قضايا السياسة والفكر واللغة فى وقعنا الراهن، والتى تبيح للجبهة الواسعة من المثقفين

العرب، فرصة الدراسة والحوار والإبداع، فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاجتهاد والمراجعة النقدية المخلصة والوعائية بكل ما قدمنا من أفكار وطروحات، فى الماضى والحاضر والمستقبل ونحن نستشرف آفاق القرن الواحد والعشرين هذه الإنجازات الضخمة التى لم نقدم منها سوى عناوينها، تتطلب دراستها النقدية الوقت والجهد، ومن أين لى بهذا كله، وأعلم أن محمود رفض بكل إباء أن يكون الاحتفال به احتفالاً بشخصه بل بوطنه الصغير والكبير، بالإسهام الفكرى فى معالجة قضاياها ومشاكله ولذلك سأكتفى بالحديث عن محمود الصديق والمناضل، كما عرفته عن قرب، منذ زمالتنا فى قسم الفلسفة فى أوائل الأربعينيات بكلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) ومن بعدها من خلال رفقة النضال الطويل عبر كل هذه السنين وخلال مرحلة من تاريخنا غنية بأحداثها ومعاركها وانتصاراتها الباهرة وهزائمها المفجعة .

ظل محمود طوال حياته ولا يزال، المناضل الذى لا يهدأ ولا يكل فى العمل والفكر، وكانت الفلسفة بالنسبة إليه منذ تخرجنا، ومنذ ارتبطنا بالحركة الماركسية، ليست مجرد أداة للفهم والمعرفة، بل وللتغيير فى الوقت نفسه . . التغيير إلى أمام على طريق الديمقراطية والتقدم . . طريق الثورة الاجتماعية والديمقراطية الراديكالية . . كنا ومازلنا نؤمن بها ونراها، أصبنا أو أخطأنا، طريق التحرر والتقدم والرخاء لشعبونا وأوطاننا ووطننا الكبير، واللاحق بركب ثورات العصر العلمية والتكنولوجية والمعرفية .

كان محمود طوال هذه السنوات نموذج المناضل الصلب، الثابت على مبدئه فى غير جمود ويقدم الدكتور لويس عوض فى أحد كتبه مشهداً تاريخياً شارك فيه؛ أثناء لقائهما معاً، الدكتور لويس ومحمود، بعد أن استدعاها عميد الكلية ليبلغهما خجلاً، قرار فصلهما من العمل بالجامعة فى مطلع حياة محمود الجامعية، وكيف تلقى محمود القرار فى هدوء ومضى فى طريقه فى تصميم وإصرار، ليعود اليوم إلى جامعته وكليته مكرماً. (\*)

ظل محمود على الدوام أميناً مع نفسه ومع رفاقه، لا يتردد فى نقده لذاته فى الفكر أو الممارسة، ومراجعة أخطائه بشجاعة . . فهو فى مقدمة كتابه «الوعى والوعى الزائف» ينقد

---

(\*) يشير الأستاذ أديب ديمترى إلى الندوة التى أقامتها كلية الآداب والجمعية الفلسفية المصرية بقاعة مجلس الكلية والتى كان محمود أمين العالم أحد أعضاء هذا المجلس، للاحتفال بمرور خمسة وسبعين على ميلاد العالم.

فكره وتقييماته الخاطئه خلال المرحلة الناصرية على الرغم من المكانة التي احتلها والإسهامات البارزة التي قدمها في ذلك الحين في ظل نظام وطنى تقدمى وفي شتى المناصب الرفيعة التي تقلدها في ميادين الصحافة والثقافة والنشر، عن قناعة وإيمان ، لا عن وصولية أو تسلق مثل غيره من أقطاب ذلك الزمان، والذين قادوا نظاما وطنيا إلى حتفه!

كما نلمس هذه الأمانة الفكرية في إعادة تقييمه لشخصيات بارزة في تاريخنا من أمثال: زكى نجيب محمود، على ضوء تتبع تطوره الفكرى ودوره التنويرى، على الرغم مما بينهما من اختلافات في الفلسفة والمبادئ، ويفعل الشيء نفسه في تقييمه وتقديره الكبير لعبدالرحمن بدوى بما أنجزه وقدمه في مجالات التراث والإحياء على الرغم من مسافة الخلف بينهما فكراً وفلسفة وسياسة.

كان محمود ولايزال ديمقراطيا واسع الأفق، لايرفض الآخر أبدا، مهما اختلف، يقيم المفكرين والأفكار والفلسفات في جوانبها الإيجابية والسلبية على ضوء رؤيته وفلسفته ومنهجه الماركسى الراسخ؛ المنهج الجدلى التاريخى الطبقي والاجتماعى، ولعل المنهج هو أبرز أسلحته على الدوام، والأساس الذى يبنى عليه تقييماته النقدية في الفلسفة والفكر والأدب والسياسة أخطاء أو أصاب.

وقد يؤخذ على محمود فرط مجاملته وأدبه الجرم في تعاملاته وعلاقته بالناس، وقد يعود ذلك لحساسية الشاعر والفنان، ولكنه لايجامل أبداً في معالجة الأفكار، حتى مع مَنْ ينتمون إلى مدرسته الفكرية والسياسية نفسها وهو حاد كالسيف مع أعداء العقل والاستنارة والتقدم، دعاة الظلامية والتخلف.

وفي مسيرتنا النضالية اختلفنا كثيرا في الماضى، وباعدت بيننا الرؤى والأفكار في بعض المواقف واللحظات، ولعلنا لانزال نختلف في نقاط وتفصيل صغيرة في تقييمنا لبعض الأفكار والتيارات والأشخاص، ولكننا في الماضى، كما هو في الحاضر لم ينقطع أبداً حبل الود بيننا، وتغلبت رفقة السلاح على أى اعتبار آخر والفضل في ذلك يعود إلى عمق ديمقراطيته وبعده عن أية حلفية أو زعامية، وكانت هذه بعض أدواء الحركة الماركسية.

تحية مرة أخرى لمحمود العالم الصديق ورفيق الطريق، في عيده ميلاده الخامس والسبعين، متمنيا له طوال العمر والعطاء، فمازالت المسيرة طويلة وشاقة، والأوطان في محنة تتطلب الكثير الكثير من المثقفين الوطنيين والتقدميين